# مظاهر السياسة العسكرية الفرنسية بقسنطينة وأثرها في رسم البنية الاجتماعية والدينية والعلمية (1837-1870م).

د. الطاهر بونابي*

مقدمة: يعد الاقتحام الفرنسي لمدينة قسنطينة 1837م واستبسال نظامها وشعبها في الدفاع عنها من ملاحم حروب المدن الشهيرة التي شهدها القرن 19م، ومن أثقل الكوارث التي حلت بالنسيج الاجتماعي القسنطيني وبنيته الدينية والعلمية والثقافية، التي ظلت قارة وعامرة لقرون طويلة داخل أسوار المدينة، ويكفينا من المشاهد المروعة والعاكسة لحجم الانهيار الاجتماعي لحظة الدفاع عن العرض والمدينة؛ فقد أخلى السكان المدينة من جهة واد الرمال، ولم يعد للعائلات القسنطينية من هَمٍّ سوى إنقاذ شرفها والفرار بالصبايا؛ "**فبينما كان الفرنسيون يدخلون المدينة من كوة السور. كان صبايا المدينة يسرع بهن أباؤهن إلى الجهة الأخرى منه يتدلين هربا وكثيرا ما كانت تتقطع بهن الحبال فتلقى بالعذارى في هوة المنحدر**"[1].

لقد أخلى القسنطينيون حينها المدينة من جهة واد الرمال، ولما سقطت بيد الجيش الفرنسي كره الكثيرون مجاورته، وفضلوا الهجرة نحو أرياف الإقليم القسنطيني ومدنه مما تسبب في تحولات اجتماعية مست بنية السكان وتراتبيه.

وفي الوقت الذي كان الحاج أحمد باي يصر على المقاومة 1837-1848م ويحشد الأنصار بإقليم قسنطينة[2] كان العسكريون الفرنسيون قد دخلوا مرحلة العمل على نطاق واسع لتحقيق مخططاتهم في إعادة رسم الهوية العمرانية للمدينة، وإعادة تشكيل بنيتها الدينية والاجتماعية والثقافية بما يسمح لهم بالبقاء والهيمنة.

فهل تمكن العسكريون الفرنسيون من تحقيق أهدافهم المتعددة الأبعاد؟

*أستاذ محاضر أ في التاريخ الإسلامي الوسيط- قسم التاريخ-كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة المسيلة.

1- مظاهر السياسة العسكرية الفرنسية 1837-1860م: لم يكن العمل العسكري الفرنسي بقسنطينة مجرد اقتحام عسكري حسمته الآلة الحربية الفرنسية لصالحها، وإنما كان ذا إستراتيجية بعيدة المدى، ومن أولوياتها في الفترة بين 1837 و1860م العمل على إقرار التوطين الأوروبي وحشد الموالين من الفعاليات الاجتماعية والدينية داخل المدينة وفي البوادي، وإذ كان العمل الأول قد برعت فيه فرق الهندسة المدنية في الجيش الفرنسي، وقد أدى إلى تغيير ملامح المدينة العربية وما انجر عن ذلك من آثار سلبية طالت البنايات الدينية والتعليمية والثقافية (مساجد، مدارس، كتاتيب، زوايا) فإن النشاط الثاني المتعلق بكسب الموالين قد تُرِكَتْ سياستها لاجتهادات ضباط المكاتب العربية، وعمل البعثات العسكرية الاستكشافية، ونشاط السانسمونيين من الجزالات والمترجمين، ومن مظاهرها:

أ/ النشاط العسكري الفرنسي في تصفية المؤسسات الدينية والمعاهد العلمية: تنهض شهادة العسكريين الفرنسيين دليلا واضحا على حيوية النشاط الديني والتعليمي بمدينة قسنطينة قبيل احتلالهم لها سنة 1837م حيث جاء في تقرير الجنرال "بيدون" المعد سنة 1845م تحت عنوان "مذكرة عن التعليم الإسلامي العام"[3] إن التعليم كان منتشرا بصورة غير متوقعة، ومن مظاهره توفر مدينة قسنطينة على 9 كتاتيب بعضها تابع للزوايا، وكان يتردد عليها ما بين 1300 إلى 1400 تلميذا، كانوا يزاولون بها حفظ القرآن ويتلقون فيها مبادئ العربية الأولى.

وفي المستوى الثانوي كان بها 7 مدارس تضم ما بين 600 إلى 700 طالبا يدرسون بها علوم تفسير القرآن وعلوم الحديث والحساب والفلك والبلاغة والفلسفة، فضلا على 35 مسجدا يلقي فيها الشيوخ الدروس العلمية"، ويبدو أن الجنرال "بيدو" قد اقتصر فقط على المساجد التي كانت تنهض بوظيفة التدريس، كما عرّج التقرير على أوضاع المعلمين والتلاميذ، والذين كانوا في وضعية مادية مريحة ومقبولة فمن بين 700 طالب كان من بينهم 150 يتقاضون منحا ويقيمون مجانا، ويستفيدون من أعطيات رمضان والمواسم وخصوصا القادمين من خارج المدينة، والذين كانوا يمثلون ثلثي الطلبة[4].





طالما أن تمويل هذه المؤسسات التعليمية والدينية كان من الأوقاف المخصصة لها يديرها نظار الأوقاف، وهم المشرفون على تسييرها من حيث القيام على تعيين المؤذنين والشيوخ وتسديد رواتبهم[5].

غير أن اقتحام الجيش الفرنسي لمدينة قسنطينة واستباحتها بالحرق والتدمير في أثناء ملاحقة المقاومين من رحبة إلى أخرى وعبر الدروب والأزقة قد أدى إلى تعرض هذه المؤسسات الدينية والمعاهد العلمية إلى التدمير، ومن سلم منها وضع الفرنسيون أيديهم على أوقافها وسجلاتها التي أضحت دليلهم في معرفة طبيعة نشاطها وما يرتبط بها من أوقاف، وحسبنا أن الرائد والمترجم "شارل فيرو "Féraud" قد أعد تقريرا سنة 1867م حول المؤسسات الدينية والمعاهد العلمية بمدينة قسنطينة بناء على سجلات استحوذ عليها من مساجد ومدارس قسنطينة، شكلت دليله في رسم تقريره الّذي جاء فيه أن قسنطينة كان بها قبيل الاحتلال 75 مسجدا و5 جوامع و13 زاوية و3 مدارس، وأن العديد منها تعرض إلى التدمير، وهي الصورة التي عبر عنها بلفظ خراب Ruinée، وأخرى أشار إلى تحولها إلى مؤسسات ومقرات، ومن المساجد التي أشار إليها بالخراب المسجد الكبير بالقصبة، ومسجد سيدي مفرج ومسجد سيدي علي مخلوف ومسجد سيدي القادر بالقصبة ومسجد سيدي أحمد بن علناس ومسجد سيدي الورد ومسجد سيدي ربي[6]، كما تناول تحويل مسجد سوق الغزل إلى كنيسة ومسجد رحبة الصوف إلى مستشفى مدني[7].

وإذا كان تقرير Féraud لا يمثل مسحا شاملا لكل المؤسسات الدينية والتعليمية التي هدمت أو حولت إلى مصلحة الجيش الفرنسي؛ فإنّ ما ترتب عقب ذلك يعكس حجم الكارثة، إذ بعد انقضاء عشر سنوات من الهيمنة الفرنسية على المدينة أي سنة 1847م، انخفض عدد الطلبة في المدارس إلى 60 طالبا، وهوى عدد الكتاتيب إلى 30 كُتّابا يرتاده 350 تلميذا[8]، ورغم ذلك فقد تواصلت إجراءات العسكريين الفرنسيين في هدم بنية المؤسسات التعليمية والدينية حتى عقد الستينات من القرن 19، حيث تم تحويل المدرسة الكتانية إلى مقر للدراسات الشرعية الفرنسية منذ 1851م، وجامع زاوية سيدي التلمساني سنة 1853م إلى جمعية دينية عرفت بسيدات ليون باستور، وكذلك موضع جامع الشيخ علي مخلوف إلى إسطبل لخيول فرقة الصبايحية ناهيك على استحواذ الجمعية الأثرية الفرنسية على إحدى المدارس وتحويلها إلى مقر لإصدار مجلة

روكاي(Recueil)، ومصادرة أوقاف مدرسة جامع سيدي الأخضر وتحويله سنة 1856 إلى مقر لكرسي حلقة اللغة العربية أين أشرف على دروسه المستشرق الفرنسي الخطير شيربونو (1813-1882)[9]، غير أن هذه الإجراءات الفرنسية قوبلت من طرف الأولياء والمتعلمين بالتوجه نحو زوايا نواحي قسنطينة وقبائل زواوة والجنوب[10]، وقد زاد في الوضع التعليمي سوء أن أهل قسنطينة الذين كانوا قبل الاحتلال يستقبلون الأقارب من أبناء الأعراش، ويتكفلون بهم مدة مكوثهم للدراسة، لم يعد باستطاعتهم فعل ذلك في ظل نضوب الموارد التي استولى عليها الاحتلال مما أدى إلى نتيجتين بارزتين: تتمثل الأولى في تراجع مستوى الدراسات المدينية، وبالتالي افتقد المشرفون على التعليم الفرنسي بالمدينة إلى شيوخ أكفاء يتصدّرون مناصب الفتوى والقضاء، ويكونون عونا للإدارة في فرض سياستها، أما الثانية فجاءت في صالح مرابطي الزوايا الذين زاد نفوذهم وباتت الإدارة الفرنسية تخشاهم[11] بعد أن صارت زواياهم قبلة للطلبة، وهي الظاهرة التي علق عليها الجنرال "بيدو" بقوله: "**أهملنا التعليم في عاصمة الإقليم قسنطينة مما سيعطي لرجال الزوايا أهمية كبيرة، ويزيد من نفوذهم وقوتهم بين السكان**"[12].

ولما أدرك العسكريون الفرنسيون كارثة هدم البنية الدينية والعلمية العامرة والمزدهرة بقسنطينة وما ترتب عليها، راحوا يكللون اعترافاتهم بمسوحات من الأسف حيث تضمن تقرير الجنرال "بيدو" سابق الذكر اعترافه في قوله: "**أهملنا التعليم في عاصمة الإقليم قسنطينة**"[13] بينما تقمص "ألكسيس دو طوكفيل" دور الرجل الأبيض الحامل لرسالة الحضارة في مظهر الرومانسي الوديع في قوله: "**إننا جئنا لإضاءة الشموع؛ فأطفأنا الموجود منها**"[14].

**ب/ مظاهر إعادة تشكيل البنية الدينية والعلمية:** لاحظ العسكريون الفرنسيون أن هدم المؤسسات الدينية والمعاهد العلمية بمدينة قسنطينة قد ساهم في تقوية نفوذ المرابطين من أهل الطرق الصوفية في البوادي، ثم إن حاجتهم الماسة إلى شيوخ يغطون بهم العجز في مناصب الإفتاء والقضاء قد جعلهم يعيدون النظر في تأهيل الحياة الدينية والعلمية بحيث تكون تحت رقابتهم وخاضعة لتوجيهاتهم لذلك شرعوا في تصنيف المساجد إلى مستويات بداية 1843م، وحصروا نشاط التدريس في مسجد سيدي الأخضر والجامع الكبير وجامع سيدي الكتاني، واختاروا لها شيوخا معتدلين فعين مصطفى بن جلول سنة 1850 مدرسا بجامع سيدي الأخضر، والشيخ





المكي البوطالبي بالجامع الكبير، والطاهر بن النقاد بمدرسة جامع سيدي الأخضر، ومحمد بن أحمد العباسي بمدرسة سيدي الكتاني فضلا على تعيينات أخرى مست شيوخا آخرين في وظائف الفتيا والقضاء والكتاتيب[15].

وفي خطوة لفرنسة المجتمع القسنطيني أنشأوا سنة 1850م ستة وثلاثين مدرسة ابتدائية يدرس فيها التلاميذ اللغة الفرنسية مرفوقة بموادها وتاريخ فرنسا وجغرافيتها، وحتى يجذبوا إليها التلاميذ القسنطينيين أدخلوا مادة حفظ القرآن ضمن المواد المقررة حيث يتم التلقين والحفظ بطريقة الجلوس على المقاعد، وهذا النمط من التعليم الفرنسي ظل كذلك إلى حين إلغائه بمدارسه من طرف الجمهورية الفرنسية الثالثة[16]. وحتى يخففوا من تأثير النشاط التعليمي بالمساجد عمدوا كذلك إلى افتتاح المدرسة الشرعية الفرنسية سنة 1851م أمام الكبار والأطفال على حد سواء، وكان الحظ إلى جانب الأطفال خصوصا الذين انهوا مرحلة حفظ القرآن بالكتاتيب؛ فقد كان الهدف من هذه المؤسسة التعليمية الدينية هو سد النقص في وظائف القضاء والفتيا والإمامة، وخصوصا أن الإدارة العسكرية باتت لا تثق في المتخرجين من الزوايا والعائدين من الطلبة الجزائريين من رحلة طلب العلم بتونس أو المشرق (مصر، الحجاز).

وحفاظا على تحقيق أهدافها المسطرة وضعوها تحت إدارة القاضي محمد الشاذلي المولع بحضارة فرنسا وتقدمها، وأسند التدريس فيها للمكي البوطالبي ومصطفى بن جلول وأحمد بن مبارك، ولما توفي محمد الشاذلي (ت 1280هـ/1863م) وأحمد بن مبارك في السبعينات أسندت إدارة المدرسة لأحمد بن جلول، وهكذا صار هؤلاء الشيوخ يتقاضون رواتبهم من ميزانية الإدارة العامة بدل الأوقاف، ومما زاد في تفكك البنية الدينية والتعليمية بقسنطينة أن الفرنسيين أقدموا على فصل القضاء عن الدين والتعليم، "**وهكذا جفت ينابيع العلم الحر، وغاضت بحور الفكر**" على حد تعبير أبي القاسم سعد الله[17].

**ج/ دور المكاتب العربية في إعادة تهيئة النخبة القسنطينية:** بدأ عمل المكاتب العربية منذ 1843م، وأوكلت مهامه إلى ضباط عسكريين يتقنون اللغة العربية، ومنحت لهم الإدارة الفرنسية صلاحيات النظر في الشؤون الأهلية وفي مقدمتها العمل على كسب طبقة الأعيان والمثقفين الوطنيين القسنطينيين واحتوائهم خصوصا أولئك الذين كانوا منبوذين في العهد العثماني[18]، وذلك

ضمن عمل شاق وطويل النفس يتمثل في إعادة رسم ملامح البنية الدينية والثقافية والعلمية بمدينة قسنطينة، وبذل الجهد في البادية من أجل التقرب من شيوخ القبائل وجذبهم بالامتيازات نحو خدمة السياسية الفرنسية من أجل بقائهم خادمين وحاملين بعيدين كل البعد عن حركات الثورة التي كان يتزعمها شيوخ القبائل والمرابطون.

وقد توافق ذلك مع اقتناع من بقي من المثقفين القسنطينيين بالمدينة، بأن قوة فرنسا ليست في جيوشها وآلتها الحربية وحسب بل وكذلك في ما جاءت به من نظم وأفكار ومطابع وأطباء ومهندسين ومترجمين وسوسيولوجيين وأنثروبولوجيين، يعكس هذه القناعة المبكرة تلك المظاهر التي ضمنها محمد الصالح العنتري- توفي بعد 1870م- في كتابه حول طريقة اكتساب العسكريين الفرنسيين لشيوخ المدن بإقليم قسنطينة، فقد عينوا حمودة بن الفكون بن شيخ قسنطينة حاكما على المدينة مقابل قيام فرنسا بتوقير عائلة الفكون واحترام زاويتها[19].

وكان ذلك عملا مشجعا "قاد مشايخ الوطن- إقليم قسنطينة- ودخلوا في خدمة الفرنسيين بواسطته"[20].

ويبدو أن شهادة العنتري تنطوي على المصداقية، كونها تتوافق مع شهادات أخرى لبعض القسنطينيين، وحسبنا قصيدة محمد الشاذلي (ت1877) إلى الأمير عبد القادر بين 1837 و1839م يشكو فيها إليه أوضاع قسنطينة أثناء الاحتلال، ويخبره فيها بكيفية مساندة شيوخ إقليمها لفرنسا وجيشها يقول فيها:

وبلغ له شكوى قسنطينة بها يسوء ذوي الأحلام والله يشهد
وذلك أن الكفر حل بها وفي عمالتها من كل أرجائها يبدو
وجل الورى راض بدولته وما درى أن رب العرش للكفر مبعد[21]

وفي مشهد آخر يزيد شهادة العنتري وثوقا أن بعضا من أعيان الشرق القسنطيني قاموا برفقة الدوق دومال سنة 1844 في زيارة استكشافية لفرنسا وحضارتها، وكان من هؤلاء الأعيان البارزين قاضي قسنطينة محمد الشاذلي والعلامة صاحب العقل المشهور محمد بن الخروبي وخليفة بحانة أحمد بن أحمد بن محمد بو الأخراص، وولد شيخ العرب وسي الأخضر بن وانوسي البوروي[22].





ولا شك أن جولة بهؤلاء في متاحف ومعارض ونوادي باريس وحفلاتها كان عملا كافيا لغسل مخهم، وصقل أفكار جديدة في أذهانهم تجعلهم عند العودة إلى بلادهم يلهجون بحب فرنسا وتقديمها وجمالها[23].

وليس أدل على ذلك من أن محمد الشاذلي الذي تشبع بأفكار الطريقة الرحمانية على يد الشيخ مصطفى باش طارزي، وتلقى علوم المنطق وعلم الكلام الإسلامي ومؤثرات جامع الزيتونة عن شيخه الثاني أحمد العباسي (ت1835م)، وكان قبيل 1844 معاديا لفرنسا وجيشها ساخطا على وجودها بقسنطينة وإقليمها كما تعكسه قصيدته على لسان أهل قسنطينة إلى الأمير عبد القادر سابقة الذكر يستنجد ويطلب منه ضرب الفرنسيين الكفار قائلا:

هلم لنا يا ابن الرسول فإننا بذل وخسران ونصرك نقصد
وبادر لقمع الكفر يا ابن نبينا عسى نفحة من عند جدك تنجد[24]

كان قد جذبته رياح الرغبة في التوظيف لدى الإدارة العسكرية إلى الوقوع في مصيدة مدير المكتب العربي "بواسوني" الذي كان له دور في تعيين الشاذلي في منصب القضاء بقسنطينة سنة 1844م حيث كان يدير المحكمة بقصر أحمد باي، ويساعده في مهمته المكي بن باديس ومحمد بن عزوز، وهي الوظيفة التي مكث بها عشرين عاما، ثم أضاف إلى جهده في عمل القضاء عملا آخر يتمثل في إدارته للمدرسة الكتانية براتب قدره 175 فرنكا إثر افتتاحها سنة 1850[25] ليبدأ عن طريق هذين المنصبين الاحتكاك بالفرنسيين وحضارتهم في فرنسا حيث قام بين 1844 و1849م بثلاث رحلات إلى فرنسا زار خلالها بلجيكا وانجلترا، وكانت أهدافه خلالها شخصية محضة، منها أنه أستقبل مع الوفد القسنطيني سابق الذكر من طرف الملك لويس فيليب وابنه "الدوق دومال" المنتهية عهدته بقسنطينة 1844 أين تم توزيع الأوسمة عليهم واستمالتهم، وقد أشاد الملك لويس فيليب بدورهم في تثبيت الوجود الفرنسي بقسنطينة وإقليمها، مثنيا على تعاونهم مع أبنائه بقوله: "إننا لا ننساكم لأنكم أنتم الذين دبرتم العافية مع أولادي في وطنكم"[26]، كما وعدهم بحفظ مقوماتهم بقوله: "وأن نبذل جهدي في حفظ دينكم وشريعتكم، وبقاء مساجدكم وتعميرها، وإحياء مدارسكم وعلومها حتى يحسبوننا العرب أحبابا لكم"[27].

لقد كان عمل المكتب العربي بقسنطينة في هذه المظان يصب في استخدام هؤلاء العائدين في الدعاية لفرنسا وملكها "لويس فيليب"، وتؤكد ذلك شهادة أحمد الأنبيري (توفي بعد 1860) في كتابه "علاج السفينة في بحر قسنطينة" بقوله: **"ولما سمع الجماعة المذكور من كلام سلطان فراسة فرحوا بذلك فرحا شديدا، وشكروه شكرا جميلا، وقالوا له بما نقلوه تكون أرضا طيبة، وسنخبر بكلامك أهل أرضنا ليفرحوا"**[28].

وفي أثنائها تعرف الشاذلي والوفد القسنطيني إلى الجنرال "بيدو"خليفة الدوق "دومال" على عمالة قسنطينة، حيث بدا عمل الشاذلي واضحا بعد 1844م في التقرب من حكام فرنسا بقسنطينة الذين مدحهم في قصائده منهم الدوق "دومال" سنة 1844 و1846م، ووزير المعارف "سالفندي" والجنرال"بيجو" و"دوماس" فضلا على مدينة باريس وأهلها[29].

ورغم أن النصوص تعوزنا حول الدور الذي لعبه الشاذلي في تثبيت الوجود الفرنسي بقسنطينة إلا أن حصوله على وسام من يد لويس فيليب، وحظوته لدى حكام قسنطينة، وعلاقته الجيدة بـ"بواسوني" مدير المكتب العربي في ظرف كان التنافس على أشده بين المثقفين والقياد والأغوات وشيوخ القبائل من أجل الأوسمة والحظوة والراتب والامتيازات[30] يعكس تميزه وركوبه الموجة في خدمة الاحتلال سبيلا في تحقيق أغراضه الشخصية، وتموقعه ضمن التراتب الاجتماعي الجديد الذي كُلفَ المكتب العربي بتشكيله على أنقاض الانهيار الاجتماعي الذي عرفته المدينة في أثناء الاحتلال جراء استبسال أهل البيوتات في الدفاع عن مدينتهم، ورحيل آخرين ممن لم يرقهم رؤية الفرنسيين يشاركونهم الحياة بمدينتهم[31].

ويحسن الذكر أنه لا تفسير لوجود محمد الشاذلي في رحلته الثانية لفرنسا سنة 1847م، والتي توافق حضور رؤساء المكاتب العربية لمدن قسنطينة- بواسوني وشرنسال وموللي- ووفود أخرى من الغرب والوسط الجزائري بباريس أيضا، والتقائهم جميعا ببلاط الملك لويس فيليب سوى ترتيب من ترتيبات رؤساء المكاتب العربية لمكافأة من خدموا فرنسا؛ فقد أقامت وزارة التعليم حفلا خاصا بالسربون وزعت فيه الجوائز للوفود العربية ومنهم محمد الشاذلي، ولا شك أن الشاذلي عند عودته كان يقوم بنقل الجوانب الإيجابية في حضارة فرنسا وثقافتها إلى الجمهور القسنطيني خدمة لإستراتيجية لويس فيليب في التقريب بين الجزائريين وفرنسا.





أما في رحلته الثالثة (1849-1850) فقد تمزق محمد الشاذلي بين قضاء أغراضه الشخصية ومسؤوليته السياسية المتصلة بالشؤون الأهلية، ومنها مهمة مؤانسة الأمير عبد القادر وبين تعلقه بفتاة فرنسية كان ينوي الزواج منها[32].

لقد كانت ظاهرة استدعاء الوفود من المثقفين والأعيان والشيوخ والقياد إلى باريس عمل منظم ومدبر تديره مصالح الشؤون الأهلية بوزارة الحربية بإشراف المسؤولين في المكاتب العربية.

ولم يكتف بواسوني "Boissonnet" بتوظيف محمد الشاذلي على صعيد الدعاية لحضارة فرنسا وثقافتها وحسب بل استغل رجال البيوتات المناوئة للحكم التركي في تحقيق التقارب بين القسنطينيين والفرنسيين[33]؛ فكان وراء الدفع بـ"محمد الصالح العنتري" إلى تأليف كتيب بعنوان "هدية الإخوان في موافقة التاريخيين وتوقيعات الزمان" وفوائد متفرقة لها شأن سنة 1847م، والمعروف بتقويم العنتري "Arabe Annuaire" باللغة بالفرنسية، ويتضمن موضوعات مختلفة في العلم والدين والسياسة والأحداث والآداب، ويصُبُ خطابها في التقريب بين القسنطينيين وفرنسا، وحسبنا أنه افتتح كُتَيِّبُهُ بآيات من القرآن تحث على التسامح والتآخي، وضرب أمثلة على التعاون الفرنسي المصري في عهد محمد علي باشا، وكيفية تحرر علماء الدين المسلمين والمسيحيين بمصر من التعصب مثل حسن العطار شيخ الأزهر[34] فضلا على تناوله لموضوعات تخص: توافق التقويم العربي والمسيحي وآيات من الإنجيل، ما قاله المسيح للحواريين وصلاة مريم عند النصارى، وقصده من ذلك نشر ثقافة التسامح الديني بين الجزائريين والفرنسيين، ناهيك على تناوله لموضوعات عامة تخص الخسوف والكسوف والتلغراف ومرض الجدري وغيرها ليعكس الدور الحضاري والإنساني لفرنسا في هذه الميادين، وختم مستشهدا[35] بأشعار محمد الشاذلي في مدح الفرنسيين.

وليس هذا وحسب بل أن "بواسوني" كان خلف كتابة العنتري لكتاب "المؤنسة الفريدة من حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها" سنة 1846م، وفيه إدانة وتشويه مقصود للحكم العثماني وتثبيط للعزائم، سلك فيه خطاب سكوني غايته إخضاع الناس لفرنسا ومنه قوله: **"هذا زمان القبطان بوسنة كول كسرتك واتهنى"**[36] في إشارة إلى بواسوني الذي كان حينها معروفا عند القسنطينيين بوسنة.

أما كتابه الثالث فهو رسالة صغيرة في القحط كتبها بتكليف من "دلير"، وانتهى من تأليفه سنة 1870م ضمنه تحلية وتلميعا للغزو الفرنسي واستيطانه، وفيه حجب على صور الجرائم التي اقترفها الجيش الفرنسي بقسنطينة وإقليمها، وأشاد به وبدوره في مساعدة أهالي قسنطينة إثر مجاعات 1838،1847،1866، 1867، 1868م، وأدرج هذا النشاط في نوع العمل المحمود في قوله: "وذلك الفعل المحمود من الدولة يذكر جيلا بعد جيل ذلك الفعل الجميل ومثله علينا شكرها مع الخضوع التام إليها"[37] لكن أمثال العنتري الذين دفعتهم زخارف الدنيا والمنزلة الاجتماعية إلى بيع أقلامهم رخيصة إلى مستعمر لم تكن غايته نشر التراث والحفاظ عليه، بل مجرد خطاب تاريخي يؤسس لذهنية قسنطينية تقبل بالفرنسيين وتمجد سياستهم، غير أن منزلته عرفت التقهقر أمام التنافس الكبير والحاد بين الكتاب القسنطينيين الراغبين في الحصول على المنصب والرتبة والمال، الأمر الذي جعل فرنسا الاستعمارية تستغني عن خدمات الكتاب القسنطينيين القدماء خصوصا بعد نهاية عهد المملكة العربية النابوليونية 1865-1869م، وهذا ما نلمسه في رسالة مؤرخة في 25 أوت 1876م كتبها محمد الصالح العنتري إلى شارل فيرو المترجم العسكري الفرنسي بالجزائر يطلب منه التوسط لدى الوالي في توظيف ابنه مصطفى في منصب "أساسور" في بلاد القبائل أو الشاوية بعد أن سعى في ذات الطلب بوسائط مختلفة لكن دون جدوى[38]، وفي الرسالة لفت العنتري نظر "فيرو" إلى حالة السباق المحموم بين الأعيان والمثقفين والموظفين الذين صاروا "يتنافسون ويتكالبون على أخذ المناصب زيادة على ما بأيديهم مع ما بهم من الغنى والثروة والجاه، ولم يلتفتوا فقط لغيرهم... من ذوي الأقدار مثلهم المستحقين لتلك المناصب شرعا وطبعا"[39].

ولم يخف العنتري توسله وشفقته بل جهر بها موضحا لفيرو بأنه لم يطلب المنصب "لأجل الأبهة والافتخار وإنما... للإعانة على تيسير النفقة وتسديد الأحوال"[40]، وهي الحالة التي آل إليها أمثال العنتري ممن خدموا المشروع العسكري الفرنسي، لقد أهمله أصدقاؤه الفرنسيون هو وأمثاله، ممن ظنوا بهم خيرا فإذا بهم يلفظونهم لفظ النواة، ويرمون بهم رمي الفتات" على حد تعبير أبي القاسم سعد الله.

ثم إن بوسواي الذي كان كذلك مهتما بماضي قسنطينة وتراثها المولع في القدم، ونشر بهذا الشأن سنة 1847م كتاب "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" لابن القنفذ القسنطيني (ت





808هـ/1407م) بعنوان تاريخ الحفصيين قد أدرج كذلك للفقي أحمد بن مبارك العطار ضمن مخطط تلميع صورة فرنسا بواسطة تاريخ قسنطينة، لذلك كلفه بكتابة "تاريخ حاضرة قسنطينة" الذي شكل إلى جانب كتابات العنتري منظورا يفاضل بين نظام تركي ظالم فاسد ونظام فرنسي راشد ومتحضر وخير.

ولم يكن ضباط المكتب العربي وحدهم من استغلوا المثقفين القسنطينيين بل وكذلك المستعربون من رجال الفكر والتعليم الفرنسيين، فقد كلف "شيربونو" (1813-1882) محمد البابوري سنة 1848 بنفس عمل العنتري وابن العطار[41]، وأشار "فايسات" في مقاله إلى تأليف الشيخ مصطفى بن جلول[42] مما يبين أن النخبة القسنطينية الكاتبة كانت محل استغلال حتى أن ما كان يصدره الضباط والمسؤولون العسكريون في المكتب العربي من مصادر محلية تخص تاريخ قسنطينة وتراثها كانوا يعتمدون فيه على مساعدة هؤلاء الكتاب القسنطينيين.

وفي عهد الإمبراطورية النابليونية (1860-1870م) تم افتتاح الكوليج الإمبراطوري أو ما عرف بالعهد الفرنسي سنة 1867م، في بناية ذات طراز إسلامي بمنحدرات سيدي مسيد، ومنحت إدارته إلى المستشرق الفرنسي "نقولا بيرون "Perrau" وتكفلت جريدة المبشر بالترويج له من أجل استقطاب أبناء الأهالي القسنطينيين الذين كانوا متخوفين من أهداف هذا المعهد، ومن المحررين الذين أشادوا بأهمية المعهد ونصحوا القسنطينيين بإرسال أبنائهم للدراسة فيه الكاتب الصحفي مصطفى بن السادات من خلال مقالته"النصيحة الدرية في تأديب الذرية"، ومحمود بن الشيخ في مقالته الموسومة بـ"نصيحة عمومية لأهل الحضر والبادية"، وكلتا المقالتين دعتا إلى نبذ الجهل والإقبال على العلم وفق الآيات والأحاديث، وتعلم اللغة الفرنسية بصفتها الوسيلة التي توصل بها الفرنسيون إلى النهضة والاختراع، ولكي يقنع أهل قسنطينة استدل في ذلك بالآيات والأحاديث الداعية إلى العلم والتعلم، وضرب مثالا بأثر الحملة النابليونية في النهضة المصرية وما أسفر عنها[43].

وحتى يشجع الفرنسيون أهل قسنطينة على الإقبال إلى الكوليج أدرجوا في برامج المعهد إلى جانب التاريخ والجغرافيا والحساب وتحليل النصوص والأدب الفرنسي، مادة اللغة العربية وقراءة القرآن ومؤدب للتلاميذ يؤدي بهم صلاة الفريضة[44].

ولا غرابة أن رجال المرحلة النابليونية من الفرنسيين وعلى رأسهم السيد "بوليو" و"جان ميرانت" كانوا فخورين بهذا الإنجاز إذ اعتبروه دليلا على كرم فرنسا وليبراليتها وجميل صنيعها.

وإذا ما أمعنا النظر في نشاط العسكريين التعليمي وجهود الإمبراطورية النابليونية بين 1850 و1870 فإننا نقف عند تجربة تعليمية طبقوها على أبناء الأهالي تحت وصاية الحاكم العسكري، ومتابعة الحاكم العام أي خارج متابعة وزارة التعليم وغايته فرنسة الإنسان الجزائري بواسطة تعليمه اللغة الفرنسية بدون واسطة اللغة العربية أي بطريقة التلقين الحسي بالعين والأذن، أما الحساب والتاريخ الفرنسي والجغرافيا ومادتي الزراعة والأخلاق والموازين والمكاييل فإن ذلك كان طبقا للنظام الفرنسي، في حين تعد مسألة إدراج مادة حفظ القرآن واللغة الدارجة مجرد عملية تمويهية غايتها إقناع أولياء التلاميذ بتجربة التعليم الفرنسي، الأمر الذي يفسر مخاوف أهالي قسنطينة والتي ترجموها في عريضة إلى السلطات الفرنسية جاء خطابهم فيها: " **إننا لا نستحي من القول بأن السبب المنافي للبعض منا من إرسال أولادنا إلى المدارس هو تخققهم بعلم تدريس لغتهم الأصلية العربية بتلك المكاتب، وخوفهم من فساد عقولهم الضعيفة، ونسيانهم لأصولهم ودينهم وملتهم**"[45]، ولذلك ظل إقبال التلاميذ القسنطينيين الوافدين على المدارس الفرنسية والمدرسة الشرعية والكوليج الفرنسي محدودا قياسا بتوافدهم على الزوايا في أرياف الإقليم القسنطيني.

2/ **العسكريون والظاهرة المرابطية:** تكاد تنف المعلومات الواردة في المصادر التراثية الجزائية حول الظاهرة المرابطية قليلة لا تسعفنا في تأليف صورة كاملة عن نشاط الطرق المرابطية- الطرق الصوفية- بمدينة قسنطينة.

وباتت تقارير البعثات العسكرية الفرنسية الاستكشافية المصدر الأساسي في الكتابة حول الموضوع في ظل غياب مستندات ورسائل كتبها المرابطون أو أبناؤهم في مواضيع صوفية أو طقوسية تم الاستحواذ عليها من طرف العسكريين الفرنسيين أو انتقلت مع المهاجرين إلى المشرق والمغرب.

إلا أن ما رشح من الظاهرة المرابطية في مسار المقاومة من فضائل الإقدام على الجهاد والاستبسال في مقاومة الكافر الدخيل وتوحيد الكلمة يعكس ما خفي من أبعادها الدينية والتربوية والعلمية والاجتماعية التي كانت مدركة لدى للمستكشفين الفرنسيين الّذين أقروا بحقيقة الثقل الديني والاجتماعي الذي تمثله طرق المرابطين في حياة الناس، ومن هؤلاء الضابط الفرنسي إدوارد دونوفو





Edward De Neveu (1871-1809) عضو اللجنة الاستكشافية العسكرية بقسنطينة الذي شكل تقريره دستورا أدار به العسكريون الفرنسيون أساليب الصراع في احتواء شيوخ طرق المرابطين والمنتمين إليها من الإخوان[46] حددها دونوفو منبها إلى قيمة تقريره قائلا: "**إنها دراسة توجهنا لمعرفة الرجال الذين يمسكون الخيوط التي تسمح عند الضرورة بتحريك السكان، وعليه فإن اهتمامنا بهؤلاء الرياس ومنحهم الرعاية والمعاملة الخاصة يمكننا من الحصول على متعاونين أقوياء يساعدوننا على إطفاء الحماس الذي ينشط روح القبائل العربية الخاضعة لنا**"[47].

الأمر الذي يفسر النجاح التدريجي للاستعمار الفرنسي في احتواء الطرق المرابطية بمدينة قسنطينة كالرحمانية والحنصالية والتجانية.

يدل على ذلك أن مصطفى باش تارزي الذي كان على رأس الزاوية الرحمانية بقسنطينة عند دخول الفرنسيين ثم من بعده أحمد باش تارزي قد انخرطا في الحياة المدنية؛ فأعطيا الأولوية للدين والعلم والتموقع في الوظائف الإدارية، دون التدخل في أحداث ثورات الرحمانية التي دعا إليها الشيخ الحداد في 8 أفريل 1871م، وقادها المقراني غير آبهم في مقابل ذلك كانوا مناهضين للقوانين الفرنسية الجائرة، ومشاركين للأعيان وشيوخ القبائل في كتابة العرائض بل وتصدروا إمضاء بعضها.

كما نلفت النظر إلى أنهم لم يحركوا ساكنا جراء ما لحق بالزاوية الرحمانية في بلاد القبائل الصغرى من تخريب وهدم، وفي الحكم على المُقَدَّمِينَ والوُكَلاَء القائمين عليها بالإعدام، ثم إننا نجهل فيما إذا كان للرحمانية بقسنطينة اتصال بالشيخ الحداد الذي قضى نحبه بسجن الكدية.

وإذ كانت ثورة 1871 قد أضعفت الرحمانية في بلاد زواوة والزيبان والهضاب العليا فإنها بمدينة قسنطينة وضواحيها قد شهدت الانتعاش بعد أن انتقل مركز الزاوية إلى وادي العثمانية حيث زاوية الحاج علي بن الحملاوي بن خليفة تلميذ الشيخ الحداد.

والملاحظ أن شيخ الزاوية الرحمانية بقسنطينة ومنذ أوائل القرن العشرين محمد العيد بن أحمد بن عبد الرحمن باش تارزي (ت 1912م) قد أعطى لطقوس الحضرة والأذكار والإجازة أولوية في الحفاظ على النشاط الديني إلى جانب طاعة فرنسا والولاء لها.

ولذلك شهدت الزاوية الرحمانية بقسنطينة الانتشار حيث صار للزوايا الرحمانية الباشتارزية ثمانية زوايا أخرى، تعج بالأتباع الذين بلغ عددهم 10070 بينهم 1958 امرأة ووكيل واحد، يقابله من القائمين عليها: شيخ واحد و85 مقدما و104 شاوش[48]، في حين تضاءل عدد الطلبة إلى 25 طالبا، مما يعكس ضعف الدور التعليمي لهذه الزوايا.

وكذلك تحكم الفرنسيون في الطريقة الختصالية بإقليم قسنطينة، ولم تعد تثير مخاوفهم، خصوصا وأن منظومتها تحث على التسامح والأخذ بمبدأ الإحسان والسعي في أعمال الخير، وزاد في سكونها أن صار خليفتها سنة 1884 معاونا أهليا أي موظفا عند الإدارة الفرنسية في بلدية روفاش قرب قسنطينة.

ثم إن طقوسها في الرقص الجماعي والإنشاد والذكر، وميل القائمين عليها إلى ابتداع طرق السحر في مواقف إشفاء المرضى والعثور على الأشياء الضائعة أو التي سرقت، وكذا التعرف على المجرمين، فضلا على التفافهم بإذن من المقدم لقراءة القصيدة الدمياطية الشهيرة عند العامة باسم الزمياطية، والتي تعني ممارسة السحر، وتعاطي المخدرات والكيف، والغياب عن العالم الحاضر.

ولم يعد في منظومتهم من الأوراد سوى أدعية في شكل عبارات دينية كانوا يرددونها صباحا ومساء عقب أوقات صلاة الفريضة[49]، ويبدو أن طابعها الطقوسي قد سمح لها بالتواجد بين الناس شفيعا في ذلك تلك الإحصائيات التي قدمها لنا الخبير العسكري لويس رين " Louis Rinn"، والمتعلقة بعدد زوايا الختصالية البالغة في أواخر القرن 19م ثمانية عشرة زاوية و4253 من الإخوان المنتمين عدا المحبين والأتباع[50]، وبذلك أدرك العسكريون خلوها من أفكار الثورة والمبادئ المناوئة لهم.

**3/ تجليات السياسة الإمبراطورية في المجتمع القسنطيني:** أصبحت الجزائر ونخبتها وأعيانها وشيوخ القبائل المرابطين وسائر الشعب الجزائري- الأهالي- وأرضه وثروته وعرضه ودينه خلال فترة الحكم العسكري 1830-1870 حقلا خصبا أراد العسكريون والحكام والمترجمون الفرنسيون المتأثرون بالفكر السانسيموني[51] أنه يجسدوا من خلاله نموذجا يحتذى به في التوحيد بين الشرق والغرب[52] في صورة التقريب بين الجزائريين والفرنسيين على أسس من التوافق، تتكفل فيه فرنسا بإدراج الشعب الجزائري في الحضارة الفرنسية عن طريق التعليم، وتوجيه قدرات الجزائريين لاستخراج





الثروات من أرضهم، والتي حباتها العناية الإلهية للفرنسيين بعد أن ظلت جدباء وقاحلة في يد الأتراك المفلسين على حد تعبير "توماس أوربان"Thomas Urbain 1812-1884م[53]، وتبرير ذلك في منظورهم متعلق بمصلحة فرنسا إذ أن حماية فرنسا يتطلب عدم التفريط في الجزائر[54].

وكل ذلك يتوقف على تأهيل المجتمع الأهلي الحضري والقبلي، وإعادة تنظيمه بتفكيك بنيته القبلية والدينية والثقافية، وبناء أخرى بما يضمن الوصول إلى حالة من التعايش بين الأهالي والمعمرين الفرنسيين مع السماح للجزائريين بالبقاء على ديانتهم الإسلامية واحترام عاداتهم وتقاليدهم.

إنها حالة من الدمج أراد السانسيمونيون تحقيقها على الأرض لكن وفق اختيارات الوسيلة العسكرية والإبادة والطرد والنفي، نستعرضها من خلال نشاط توماس أوربان.

**أ/ نشاط توماس أوربان (نموذجا):** نالت توجيهات المترجم توماس أوربان حظها من العناية عند السانسيمونيين من خلال نشاط الدوق دومال Duc d'Aumale الذي لفت النظر إلى دور توماس أوربان في تأهيل أعيان قسنطينة البارزين، وترويضهم في خدمة الإدارة الفرنسية، كما بدا توجيهه فعالا للجنرالات الفرنسيين في بسط الهيمنة العسكرية بإقليم قسنطينة منذ نوفمبر 1839م، من خلال مشاركته مع الجنرال "غالبوا" في إخضاع القبائل الثائرة بمنطقة سطيف وعند الحراكته بشرق الإقليم، ثم مع الجنرال "نيغري" ومن بعده "روميني"، وأخيرا في مساعدته للجنرال "بيدو" Bedeau في احتلال مدينة بسكرة ومنطقة الزيبان سنة 1840م[55]، ولم يكن "توماس أوربان" مجرد مترجم مستشار وخبير بطرق الانتصار على المرابطين من زعماء المقاومة[56]، وعارفا بسبل إخضاع القبائل ثم تفكيكها، والضغط على قلولها باتجاه الصحراء، وحشد ما تبقى منها في الأرض الوعرة وحسب، بل إن توجيهاته كانت صائبة في دمج القبيلة بإقليم قسنطينة كقوة محاربة في تشكيلات الجيش الفرنسي فيما عرف بفرق الصبايحية وجيش القناصة الجزائريين الذي جند منهم بإقليم قسنطينة بين 1841م و1855م أربعة كتائب، وكان مردودهم جيدا؛ فقد كانوا يتصدرون الصفوف الأولى في المعارك، وفي كثير من الأحيان كانت هذه التشكيلات تحقق انتصارات على القبائل الأهلية الثائرة دون مشاركة الكتائب الفرنسية[57]؛ فكان ذلك عملا أهله لأن يحصل على وسام الشرف سنة 1840م.

ولم يخف دوره الفاعل في السياسة العسكرية السانسيمونية المنهجة بإقليم قسنطينة وحسب، بل اعترف في سيرته الذاتية أنه كان يشرح أفكاره السياسية المتعلقة بكيفية تنظيم القبائل لكل من الدوق "دومال" على قسنطينة والجنرال "بيدو"[58] ما يعكس تأثيره الفعال في مراكز القرار بإقليم قسنطينة.

كما أن وضعه الديني كخبير كولونيالي اعتنق الإسلام بأرض مصر سنة 1835م وتسمى بإسماعيل حينما كان بمهمة رفقة مجموعة من السانسيمونيين أمثال: "ايميل بارو"، "غوستاف ديشتال"، و"أونفونتان" قد أكسبته الخبرة في تحقيق نفس الأهداف التي جاء لأجلها إلى الجزائر.

فقد جعل من تقمصه للإسلام دينا غطاء استطاع أن ينفذ بواسطته إلى داخل المجتمع القسنطيني من خلال زواجه من قسنطينية جرمونة بنت مسعود الزيري في مارس 1840م، ولا غرابة أن أصحاب الأفكار من السياسيين الفرنسيين كانوا مثل نظرائهم من علماء الاجتماع والإثنروبولوجيا والأحياء يقبلون على العيش في الحقول التي يخضعونها لتجاربهم بغية الحصول على نتائج ملموسة، لقد جعل "إسماعيل أوربان" من المجتمع القسنطيني خاصة والمجتمع الجزائري عامة حقله في تلمس الواقع الاجتماعي والاقتصادي، وحاول تغيره من الداخل، وحسبنا أنه أراد إحداث ثورة اجتماعية من خلال تغيير الوجه الأبوي للأسرة القسنطينية، وذلك عن طريق إخراج النسوة إلى المدارس؛ فقد كانت النساء الأهليات حسب استطلاعه "**مستعدات للخياطة، ولديهن رغبة في القراءة والكتابة**"[59] كما يعد كتابه المشترك مع الدكتور فارني Warnier سنة 1841م- عضو اللجنة العلمية لاكتشاف الجزائر- والموسوم بـ"نبذة عن إقليم قسنطينة"، والمدرج ضمن سجل المنشآت الفرنسية بشمال إفريقيا Notice sur la province de constantine[60] من أبرز ما كتب حول مظاهر الإثنيات من العرب والقبايل والشاوية حيث شحنه بعناصر المفارقات بين هذه الإثنيات من حيث اختلافهم في اللغة واللهجات والعادات وأنماط العيش، ناهيك على مفاضلته بين واقع المجتمع القسنطيني تحت الحكم العسكري الفرنسي، وما عاشه هذا المجتمع تحت نظام الحكم التركي وسياسته الاجتماعية التراتبية، ولا يخفى كذلك أن توماس أوربان كان يعتبر تعليم الأهالي بالمساجد والكتاتيب والزوايا تعليما دينيا لا جدوى منه، ولذلك دعا إلى إنشاء مدارس فرنسية- عربية للتعليم الفرنسي بالمناطق السكانية الكبرى تخضع لرقابة المفتشين الفرنسيين، ويكون





فيها مدير المدرسة فرنسيا ونائبه جزائريا، على أن تحضر برامجها من طرف خبراء فرنسيين في مواد الحساب والتاريخ والجغرافيا والأناشيد الوطنية الفرنسية، مع السماح للتلاميذ المسلمين بحفظ القرآن.

ولما كان ينظر إلى الزوايا على أنها تخرج... رجال الدين والمقاومة؛ فقد اقترح تأسيس مدرسة إسلامية في كل مقاطعة ومنها قسنطينة، يكون المدراء والأساتذة معينين من طرف الإدارة الفرنسية[61].

ولا غرابة أن عرف أهالي قسنطينة إنشاء المدارس الابتدائية منذ 1850 كما سبق ذكره عندما كان أوربان مديرا للشؤون الأهلية، كما لا يستبعد أنه كان وراء افتتاح الكوليج الإمبراطوري أو المعهد العربي الفرنسي سنة 1867م عندما صار مستشارا مقررا بالحكومة العامة بين 1860-1870م.

إلا أن ذلك لا يشفع له في نقده غير المؤسس حول التعليم الأهلي الذي كان الاحتلال وراء مصادرة أوقافه وهدم بنيته واحتلال نظامه، ثم إن الغاية من شكل المدارس العربية الفرنسية التي كان يريدها أوربان هي نشر اللغة والثقافة الفرنسية.

ويبدو أن وسام الشرف الذي ناله سنة 1840م نظير الأعمال والإنجازات التي حققها جعله مؤهلا لوظيفة بمديرية الشؤون الأهلية بوزارة الحربية بباريس حيث مجال تخصصه وعرفه وذلك سنة 1845م ،ثم ترقى إلى رئيس مكتب الشؤون الأهلية بوزارة الحربية سنة 1858م، وبعد ذلك مستشارا مقررا بالحكومة العامة بين 1860 و1870 بمساعدة من مدير الشؤون الأهلية بالحكومة العامة السيد مارسي الذي كان يبادله الأفكار المتعلقة بكيفية تمدين الأهالي[62]، وهي المرحلة التي كتب فيها كتابين: الأول تحت عنوان L'Algérie Pour les Algériens سنة 1861م باسم مستعار عرف بجورج فوازين، بينما جاء كتابه الثاني بعنوان L'Algérie Française بدون أن ينسبه إلى نفسه أي جعله مجهول المؤلف.

أما كتابه الأول فقد استهله بمقدمة وضح فيها الغاية من الاحتلال، وضمّنه وصفا للحياة الاجتماعية والثقافية بالجزائر إلى غاية 1860م، وتعرض إلى النظام الإداري والعسكري بالجزائر، ثم

إلى جهود النظام الفرنسي في المجالين الاقتصادي والصحي، وختمه برؤيته حول كيفية تسيير شؤون الأهالي واستدراك سلبيات النظام العسكري.

في حين جاء كتابه الثاني دعوة إلى إعطاء فرصة إلى الأهالي الجزائريين لنشر الحضارة الفرنسية طالما أنهم يمتلكون قدرات الإتقان والنزاهة والكرامة، طالبا من فرنسا القيام بواجبها الحضاري إزاء الأهالي، من خلال القيام بالإنجازات في الأشغال العمومية والسكة الحديدية والفلاحة والتعليم، وتوظيف الإنسان الجزائري، واستغلال كفاءته في النشاط الزراعي والصناعي، وكل ذلك مشفوعا بنقده للممارسات الكولونيالية ضد الأهالي، أما في الشق الحضاري من الكتاب فقد رافع عن الإسلام معتبرا أن الأطروحة القائلة بأن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين غير صحيحة، وأن مصادرها نابع من تأثيرات بربرية أوروبا الكاثوليكية، وضرب أمثلة بحضارة الإسلام الراقية وروح التسامح التي صاحب وجوده في شبه جزيرة إيبيريا كما اعتبر الأمة الجزائرية أمة جديرة بالاحترام طالما أنها قاومت الاحتلال وقوته العسكرية(63).

وإلى جانب نشاطه في التأليف تجلى اهتمامه أيضا في هذه الفترة بالاهتمام بالأسرى الجزائريين في سجن مارغريت وحصن بريسكو وأمبواز في محاولة لتوظيف ورقة الأسرى في تجسيد المملكة العربية الفرنسية.

**ب- المعارضة الكولونيالية وميلاد الفكرة المجردة- الوعي-:** على الرغم من أن أفكار توماس أوربان لقيت الترحيب عند الإمبراطور نابليون الثالث الذي راسل بشأنها كل من الحاكم العام في الجزائر بيليسي في فيفري 1863م، وأخرى إلى مارشال ماكماهون في 20 جوان 1865م ضمن فيها أفكار توماس أربان وكتاباته الداعية إلى مشاركة الجزائريين في بناء الجزائر كما يوحي بذلك عنوان الرسالة الأولى الذي ورد باسم المملكة العربية فيما جاءت الرسالة الثانية في صيغة الجزائر مملكة عربية ومستعمرة فرنسية(64).

غير أن ذلك لم يكن ممكنا أمام معارضة المعمرين المدعومين من طرف الحاكم العام بالجزائر، تلك المعارضة التي تفاقم عنفوانها في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة 1871 ونظامها في الحكم المدني، والذي كان من أولوياته مواصلة درب النظام العسكري في امتصاص شيوخ العلم والدين، وجذبهم إلى الإدارة الفرنسية حتى لا يتعلقون بالأفكار المناوئة للاستعمار، كما وجد هذا النظام في





ثورات 1870-1871م الحجة في الإقدام على تغيير بنية المؤسسات التعليمية والثقافية والدينية؛ فتجرأ على غلق المدارس القرآنية، والزوايا في مناطق الثورات ببلاد القبائل الصغرى، ثم وسع العملية إلى قسنطينة أين ألغي بها التعليم الابتدائي المزدوج، ودمج المعهد العربي الفرنسي- الكوليج (1867-1871) في الثانوية الفرنسية، وفرض الرقابة والتفتيش على كرسي الدرس بالمساجد وبالمدرسة الشرعية الفرنسية(65) أين كان عبد القادر المجاوي (1848-1913) بالجامع الكتاني والمدرسة الرسمية، ومحمد الصالح بن مهنا (1854-1910) بالجامع الكبير(66)، حينها يقطعان رتابة سياسة الحكم المدني في التعليم والثقافية بواسطة الولوج إلى وعي المستمعين من الطلبة وساكنة المدينة(67).

ولما تبين لإدارة الحكم المدني "**أن الفكرة التي أراد- الاستعمار- إقصاءها بقيت حية في ميدان المعركة... بوصفها فكرة مجردة استقرت في ضمير الشعب**"(68)؛ فإنه أوكل المهمة إلى خبراء لهم الدراية الواسعة في تقويض أفكار العلماء ولجم أفواههم ومحاربتهم حيثما حلوا أو سكنوا، لأنهم على حد تعبير مالك بن نبي: "**رجال متخصصون مكلفون برصد الأفكار**".

تمكن الاستعمار بواسطة المؤرخين والأنثربولوجيين والسيوسولوجيين والإثنوغرافيين من التوصل إلى "**معرفة دقيقة بنفسية البلاد المستعمرة، معرفة تسوغ له تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعي في تلك البلاد حسب مستوياته وطبقاته**"(69)، ومن وسائله استخدامه للغة الفكرة المتجسدة المتمثلة في العلماء؛ "**فيقدم للمثقفين من حولهم شعارات سياسية تسد منافذ إدراكهم إزاء الفكرة المجردة**" أي الوعي(70).

وتلك هي أحد مظاهر السياسة الثقافية الفرنسية بقسنطينة في عهد الحكم المدني، والتي كانت تنذر بنهاية عهد أساليب أعضاء اللجنة الاستكشافية العسكرية وضباط المكاتب العربية والسانسيمونيين من القادة والحكام أنصار الإمبراطورية النابليونية العربية في كيفية احتواء النخبة القسنطينية، إنه فصل جديد من أساليب الاحتواء بوسائل ثقافية عميقة، ولكن الفرق بين المرحلتين أن الفكرة المجردة في المرحلة الثانية قد نجت بأعجوبة، ولجأ حاملوها إلى وسائل وأدوات مثل إحياء التراث والصحافة وأشكال النشاط الثقافي الأخرى، ووظفتها في مشاهد الصراع الأولى في عقد الثمانينات من القرن 19م مبرهنين على دخولهم في حالة من التكيف المقاوم، والذي شجعهم

لاحقا- في أوائل القرن العشرين- على الدخول إلى حلبة الصراع الفكري المكشوف ضد خبراء الاستعمار عبر نزال شاق ومرهق تستحق تفاصيله البحث والتحليل.

الهوامش:

(1)استقى مالك بن نبي 1905-1973م مادة هذه المشاهد عن جدته الحاجة "بايا" التي تجاوزت المئة عام حين كان له من العمر أربعة سنوات، وقد ذكر بأنه لم يعرفها بما فيه الكفاية غير أنها أورثت عائلته الكثير من مشاهدتها وذكرياتها القديمة حول ملحمة قسنطينة في مواجهة الغزاة الفرنسيين. مذكرات شاهد القرن(الطفل 1905-1930م)،ط1،دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة-الجزائر- 2013 ، ص ص 15.

(2) كتب الباحث أوجينفايست عضو جمعية قسنطينة للآثار بين 1867 و1869 حول تاريخ بايات قسنطينة 1792-1873م وفصل في مشاهد إصرار الباي أحمد الباي على المقاومة بضواحي قسنطينة وفي بسكرة ونقاوس والأوراس وإلى غاية وفاته في 30 أوت 1850. تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792-1873، ط1، ترجمة صالح نور، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010. ص ص 276، 272.---(3) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1854)، ج3، دار عالم المعرفة، الجزائر، ص26.

(4) جاء في التقرير أن المؤذن كان يتقاضى 14 فرنك وهدايا العيد وعطايا المواسم الأخرى وتبرعات الطلبة عند حفظهم لأجزاء القرآن وبالتالي قدر دخله السنوي ب 30 فرنك. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 27.

(5)Les anciens établissements réligieux musulmans de canstantine, Revue Africaine, douzième année, Numéro 67.Janvier 1868, lebraire éditeur, Alger 1868.p128.

(6) Ibid,p128.

(7) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص27.---(8)نفسه، ج3، ص 27.

(9) نفسه، ج3، ص ص 61،44.---(10)نفسه، ج3، ص60.---(11)نفسه، ج3، ص27.---(12) نفسه، ج3، ص26.

(13) نفسه، ج3، ص27.---(14)نفسه، ج3، ص27.---(15)نفسه، ج3، ص60.---(16)نفسه، ج3، ص ص 4،3

(17)نفسه، ج3، ص ص 3،4---(18)أبو القاسم سعد الله: القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني دار عالم المعرفة، الجزائر، ص 45.

(19)أورد محمد صالح العنتري نص الحوار الذي دار بين شيخ زاوية أسرة الفكون والماريشال الفرنسي، لما سمع الشيخ نبأ تعيين الفرنسيين لابنه حمودة حاكما على قسنطينة حيث بكي قائلا: "ولدي صغير ونحن زاوية ملجأ القليلين نطعم الطعام لوجه رب العالمين وما نحتاج من الدولة الفرانسوية الاحترام... فأجابوا لا بد من ولدكم يخدم في سربيسنا وما يكون لكم ولزاويتكم إلا الاحترام منا". الفريدة المؤنسة في حال دخول الترك بلاد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (المسمى تاريخ قسنطينة)، ط1، مراجعة وتقديم يحيى بوعزيز، دار هومة الجزائر، 2005، ص ص148،147.--(20) حول دخول شيوخ إقليم قسنطينة في طاعة وخدمة الفرنسيين انظر: العنتري: الفريدة المؤنسة، ص ص 149،148.---(21)سعد الله: القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، ص 69.---(22)العنتري: المؤنسة الفريدة، ص .161.

(23)أبو القاسم سعد الله: أفكار جامحة، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011،ص 68.---(24)يذكر أبو القاسم الحفناوي أن محمد الشاذلي لازم كل من الشيخ مصطفى باش تارزي والشيخ العباسي، حتى نبغ في فنون الأدب. تعريف الخلف برجال السلف، ج2، تقديم محمد رؤوف القاسمي الحسني، ط1، دار موفم للنشر، 1991، ص 225.---(25)أبو القاسم سعد الله: القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، ص 71.---(26)نفسه، ص 36.---(27)نفسه، ص 38.---(28)نفسه، ص 38.---(29)نفسه، ص 39.---(30)نفسه، ص 64.---(31)نفسه، ص 37.---(32)نفسه، ص ص 48،38.

(33)أبو القاسم سعد الله: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج3، (ضمن مجموعة أعمال الدكتور أبو القاسم سعد الله ، (عالم المعرفة)، 2011، ص 299 (34)نشر هذا التقويم في جريدة الأخبار بتاريخ 23 مارس 1847. ابو القاسم سعد الله: لقاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، هامش،74، ص 64؛ سعد الله أبحاث و أراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص 300.

(35) الفريدة المؤنسة، ص 153.---(36) نشرت تحت عنوان مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح بونار، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص ص 59، 51.

(37)حول نص الرسالة انظر أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص ص 303، 304، 305.





(38)نفسه، ج3، ص ص 302، 303.---(39)نفسه، ج3، ص 305.---(40)نفسه، ج3، ص 301.

(41)أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية (ضمن مجموعة أعمال الدكتور أبو القاسم سعد الله)، دار عالم المعرفة، 2011، ص 22.---(42) أبو لقاسم سعد الله: تاريخ الجزائر لثقافي، ج3، ص ص 410، 411.---(43) نفسه، ج4، ص 405.---(44) نفسه، ج3، ص 409.---(45) نفسه، ج3، ص 412.---(46)حول الوقفة لتقييمية لكتاب الإخوان للواء ادوار دونوفو. أنظر

A.berque : note sur les confréries musulmanes algériennes , imprimerie, typographique, oran,1919, pp9-11.

(47)الإخوان (دراسة أنثربولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر)، ترجمة وتحقيق كمال فيلالي، ط1، دار الهدى، عين مليلة، قسنطينة، 2003، ص 24.---(48)أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر لثقافي، ج4، ص 167.

(49)نفسه، ج4، ص 167.

(50) Marabouts et Khouans , étude sur l'Islam en Algérie , libraire de l'académie Alger,1884 pp 385-398

(51) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر لثقافي،ج4،ص ص 86،87.

(52)عرفت الجزائر ولوج التيار لسانسيموني منذ بداية الحملة الفرنسية 1830 مع الجنرال لامورسيير 1806-1865م والنقيب بيجو 1831م ، ثم مع الدوق دومال وبادو والمترجم توماس أوربان المتوفى 1884م. عميراوي حميدة: دراسات في تاريخ الجزائر الحديث،ط2، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2004،ص ص 124،125.

(53)مصطفى عبيد: الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر1833-1870م، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر ،2013،ص .105

(54)Georges voisin :L'algérie pour les algériens, Michel lévyfreres , paris,1861,p2

نقلا عن مصطفى عبيد: الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر،ص 106.

(55)نفسه،ص 90.---(56) سبق لتوماس أوربان أن عمل مترجما لدى الجنرال بيجو وحضر توقيع معاهدة لتافنة في 30 ماي 1830، وشارك في الحملة العسكرية على زمالة الأمير عبد القادر 1843.مصطفى عبيد: المرجع السابق، ص ص 88،89،90،91.

(57) نفسه،ص ص 148،149.---(58)نفسه، ص ص 111،112.---(59) نفسه، ص 132.---(60)نفسه، ص 132.

(61)نفسه، ص ص 176،172.---(62)نفسه، ص ص121،127،79.---(63)نفسه، ص ص97،98 .

(64)نفسه، ص ص122،131.---(65) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر لثقافي، ج3، ص ص50،403،414.

(66) عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة (تاريخ -معالم -حضارة)،ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، بدون تاريخ، ص ص189،190.---(67)أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج3، ص ص128.---(68)مالك بن نبي: لصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر2013، ص15.---(69)نفسه، ص16.---(70)نفسه، ص16.

**Abstract:** This study includes the different French military policies in Constantine between 1837 and 1870; through the role of the Arabic offices ,the members of the exploratory Military Committee and the saint-simon supporters of the Empire Napoleonien, in the destruction of the religious and educational institution's structure in Constantine, besides the application of containment policy on its leaders and scholars in favor to the French military presence and its institutions.

However, they have supervised the new educational institutions, which they have founded as alternative for the old ones ,as they have watched its rigorously application ,as well to study a preview of the manifestations of the policy of Napoleon III in the establishment of an Arabic kingdom in Algeria and its impact on the activity of the saint-simonist Urban Thomas in Constantine.

However that expressed the success of the French policy in attracting the religious and cultural events containement in Constantine that ensured stability and comfort for the French armies.